مجلّة اللّغة العربيّة المجلّد:21 العدد: 48 السّنة: الثّلاثيّ الرّابع 2019 ص: 193 - 214

ثلاثة مصادر أساسيّة لإثراء اللغة العربية في الفترة المعاصرة: القراءات القرآنية، ملاحظات النحاة الأوائل، واللهجات المحكيّة.

أ. عبد الكريم جيدور[1]

تاريخ الإرسال: 2018- 02- 05 تاريخ القبول:2019- 09- 29

الملخّص: تعد اللغة وسيلة الإنسان الأساسية للتفكير والإبداع وتأسيس أرسخ الروابط الاجتماعية والثقافية، كما أنها السُلّم الذي ترتقي عليه الآداب والفنون والعلوم وهي بذلك جزء بالغ الأهمية من المجموع الكلي للتنمية المستدامة ذلك أن التنمية اللغوية لا تختلف في جوهرها عن سائر أجناس التنمية الأخرى من حيث الحاجة الماسة والدائمة إليها عند كل فرد.

إن هذا البحث يناقش هذه المسألة من جهة الموارد اللغوية التي يمكن لأبناء العربية من الباحثين والمنظرين والمؤطرين أن يولوها مزيدا من العناية والتحقيق للوصول إلى حلول لبعض المشكلات المزمنة التي تعوق قيام تنْمِيتنا الكاملة على قواعد ثابتة. ويتعلق الأمر بثلاثة مصادر هي: قراءات القرآن الكريم المتواترة، ملاحظات النحاة واللغويين العرب الأوائل، ومجموع الذخيرة اللغوية الفصيحة التي اختزنتها اللهجات العربية المحكية. إن هذه المصادر معروفة على صعيد البحث في اللسانيات العربية، غير أن الربط بينها، ومعرفة طرق الاستمداد منها هي الجوانب التي يحاول هذا البحث التركيز عليها.

[1] مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية- وحدة ورقلة- الجزائر، البريد الإلكتروني: karimn2000@gmail.com

الكلمات المفتاحيّة: لغة العربية؛ قراءات قرآنية؛ لهجات محكيّة؛ ملاحظات النحاة.

Abstract: Language is from no doubt an interesting tool for thought and creativity and social communication. It is also the power by which any kinds of literacy or science or culture are to be growing up. That is because there is no particular differs between linguistic development and other parts of development in modern society.

The present paper attempt to discuss this critical issue by giving some insights about three main resources which can contribute frequently in the study of Arabic linguistics and can use by many sorts as functionalistic tools in the plans toward Arabic language management.

مقدّمة: تُثبت اللغة العربيّة الفصحى وجودها في نادي اللّغات الحيّة وتستمرّ في شق طريقها الخاصّ نحو العالمية بما تثبته في أرض الواقع من أدوارٍ أساسيّة في التعليم والإعلام والثقافة وما تكشفه لدارسيها من قدرةٍ على الإنتاج والتجدّد والعطاء. وكغيرها من اللغات الحيّة تستفيد هذه اللغة من أبْحاث أبنائها وتحقيقاهم النزيهة الرامية إلى زيادة مردودها، وتعميق نفوذها في كل مجالات الحياة.

إنّ البحث العلمي الراهن يقدّم العديد من المُعطيات الهامة التي تؤكد بأن مشكلة ابتعاد الفصحى عن مجالات الحياة اليوميّة تقف خلفها عوامل عديدة وأن هذه العوامل قابلة في مجموعها للرصد والمعاينة والتصنيف، وذلك يعني إتاحة الفرصة لأبناء العربية في كل وقت لإعادة بناء سلسلة السند الصحيحة التي تُخوّلهم استرداد الثروة اللغوية الراسخة في الفصاحة فيما حفظت لنا الموارد التراثية واللهجية وقراءات القرآن الكريم المتواترة. يحاول هذا البحث أن

يُثري هذا البرنامج العلمي الطموح، بالإشارة إلى ثلاثة من أوثق مصادره ومرجعياته.

1- الوحي واللّسان؛أصالة العلاقة بين العربية والقرآن: يظل القرآن الكريم أقوى المصادر المُعتمدة في كُل ما له صلة بفهم معاني اللغة العربية واكتشاف نفائسها البلاغية والتحقّق من ثراء مُعجمها وثبات نظامها. وقد ذكر الإمام الزركشيّ في البرهان أن العلم الغزير بحقائق اللّغة شرْطٌ لازم لمن عزم القيام على تفسير كلام الله «ولا يكفي في حقه تعلم اليسير منها، فقد يكون اللفظ مشتركا وهو يعلم أحد المعنيين» [1]. وأكد السيوطي على ضرورة "التبحُّر في لسان العرب" لمن كان يرجو حظا من فهم كلام الله تعالى وتفسيره [2]. ثم إن موافقة العربية هو أحد أركان صحة القراءة الثلاثة، وقد حكى ابن الجزري إجماع الفقهاء والقُراء على ذلك [3].وبناء على ما سبق، تبقى العلاقة الوثيقة بين الوحي الإلهيّ واللسان العربي ثابتةً وخارجة عن مجال الشك والارتياب.

يؤكّد المولى - عز وجل- في كتابه الكريم على عربية القرآن في أربعة عشر موضعاً منه [4]، كما يعقد النظْم الحكيم نسبةً ثلاثيّة مطردة بين:"اللسان والقرآن والكتاب" من جهة، و"الإبانة والتفصيل والتصديق" من جهة أخرى؛ فالقرآن عربي، بصريح النص في ستة مواضع﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:2]/ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾[طه:113]/ ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر:28]/ ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[فصلت:3]/ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾[الشورى: 7]/﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف:3]).

والكتاب عربي: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[**فصلت**:3]/ و﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾[**الأحقاف**: 12]).

واللسان عربي: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٞ﴾[**النحل**:103]/ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ [**الشعراء**:195]/ ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾[**الأحقاف**: 12]). [5] **والجدير بالذكر أيضا أن اللسان حيثما ذُكر في "القرآن الكريم" فهو مُبين، والقرآن حيثما ذكر فهو مُفصَّل الآيات، والكتاب حيثما ذكر فهو مُصدِق لما بين يديه.**

وينبغي أن يلفت نظرنا أن الإشارة إلى العلاقة بين الوحي واللسان العربي الذي اختير من لدن الله –تبارك وتعالى- وعاءً له قد ورد مقرونا بالتعظيم، كما يوحي ضَمير الجمع في سياقات كثيرة:(وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ [6]/ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ [7]/ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ [الزخرف:3]/ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ [8]) والتحدي [9]، وأن هذا الأمر كلَّه قائم على الحكمة البالغة والعلم المُحيط [10].

إن الحقائق الآنفة تكشف بوضوح تام عن وجه الارتباط المُحكَم بين الوحي الإلهي الخالد واللسان العربي المبين، ومن المنطقي أن يأخذ هذا اللسان حظا من هديّة الخلود نظير احتفائه بهذه المنزلة، وقيامه على حفظ هذه الرسالة السماوية المُشرَبة بالرحمة والرحمانيّة والهداية للعالمين.

2- تصوّر اللغة عند العلماء الأوائل: تُظهر الأنماط والمسالك المنهجيَّة التي اختارها اللغويون والنحاة الأوائل فهمًا عميقاً لطبيعة الصلة الوثيقة بين القرآن الكريم واللسان العربي المبين، وقد استضاءوا بهذا الفهم في بناء تصوراتهم حول

الظاهرة اللغوية بوجه عام، ولما ينبغي أن يكون عليه التناول العلمي الموضوعي لهذا الموضوع في جوانبه الخاصة وقضاياه التفصيليّة.

وكما ورد في النصّ القرآني الصّريح [11] تتحدّد اللغة أولا بكونها ظاهرةً كبيرةً معجزةً تستحق لذاتها كل التعظيم والتأمّل، وهو تعظيم تجاوزيّ العبرة منه الوصول إلى تعظيم خالقها ومكوّنها. ثم إنّها بإزاء نظائرها من الظواهر الكونية الأساسية مُحكمة البناء، دقيقة الموازين، شديدة الترابط والتعاضد بين أجزائها. كما أن لها غاية عامة وجدت من أجلها هي البلاغ والبيان، ثم غايات جزئية تتفرع عن هذه الغاية الأولى بتدريج مضبوط.

ويُمكن أن نعثر على التصور الآنف معقودا بمضامينه في العديد من المواقف المبدئية للعلماء الأوائل؛ من ذلك مثلا آراء الخليل بن أحمد وجواباته المثيرة للاهتمام فيما نقله الحافظ الزجاجي؛ في مشهد مهم من هذه الحوارات نجد الخليل يفسر نظام العلل النحوية انطلاقا من فكرة أن اللسان هو صناعة خبير بالغ الإتقان، سديد الحكمة، من المحال أن يصنع شيئا بمحض الترف والعبث [12].

ومن المفيد أن نسجّل هنا الجوانب المشتركة وكذا الفوارق والتمايزات الأساسية بين التصور العربي للغة المشار إليه آنفا والتصور الغربي الذي يُغذّي معظم جوانب البحث في اللسانيات المعاصرة: يشترك التصوران العربي والغربي في تعظيم اللغة، ويتسالمان على أن وجودها الوضعي بالصفة التي هي عليها يستحق من كل عالم وشغوف بالفهم والاستطلاع أن يتفرغ لملاحظتها بعناية في ضوء أثْبَتِ المناهج العلمية وأوثق طرق البحث والتحقيق.

غير أن التصور العربي، ولا سيما ذلك الذي تترجمه المصنفات الأولى يشترط العلة الغائية في كل بحث أو نظر مهما كان نوعه، ولا يُستثنَى من ذلك البحث في اللغة ومستوياتِها وضعا واستعمالا، لفظا ومعنى. لأن العقل المسلم يُحيل وجود شيء على سبيل الصدفة أو الانتقاء الطبيعي، ويعتقد هذا

العقل المتمرس بلغة القرآن وبيانه أن كل ظواهر الكون المنظور قابلة للعقل بمعنى أنه يمكن فهم عناصرها وأسرار حركتها وسكونها فهما كافيا في إطار المبادئ الأساسية للعقل البشري وبديهياته.

أما التصوّر الغربي فهو يرفض - حتى الآن- ارتباط الفهم والإدراك المتكامل للظواهر بمسألة التعليل [13]، بل إن اتجاهات عديدة تجادل مصرة على أن مهمة العلم الوحيدة هي الوصف البحت، أما التعليل فهو نشاط تكميلي عقيم حتى لو قبلنا به فلا يزيد في الفهم شيئا [14]. وأما التعليل الغائي كما يتصوّره العلماء المسلمون فهو عند التطوريين المعاصرين جِنْس متخلّف من المبادئ التي تنتمي إلى الحقبة الميتافيزيقية التي تؤمن بأن يدا سحرية تنسج العلاقات وتهيمن على مسارات الأشياء وتحولاتها [15].

3- مقاييس جمع المدوّنة اللغويّة وبناء أصول الكلام: تتطابق الروايات المنقولة حول نشأة البحث اللغوي الذي يصطلح عليه علماء ذلك الجيل عبارة **"علم العربية"** في الإشارة إلى عمليّات الجمع المكثف للمادة اللغوية من مضانّها المتوفّرة وخلافا للتعليقات المشبوهة التي سجّلها المستشرقون على هذه الجهود فإن الملاحظات الموثّقة في ذلك الزمان ومن عين المكان نقلا عن أصحاب الشأن الثقات تجعلنا نقتنع بأن هذا العمل الأساسي كان حملة منظمة تكاملت فيها عوامل عديدة أدت إلى نجاحها الباهر [16]. وطوال ثمانين سنة مستمرة دون انقطاع شارك الجيل الثالث من القراء الكبار كأبي عمرو بن العلاء والكسائي وتلامذتهم، إضافةً إلى الجيل الأول من النحاة كعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ونصر بن عاصم الليثي وتلامذتهم في جمع الكلام العربي من أفواه الناطقين، فرحلوا إلى مضارب القبائل المنتشرة على مدى مترامي الأطراف في ربوع الجزيرة العربية، وكانت هذه الرحلات مغامراتٍ أسطوريّة بمعنى الكلمة

وما زال العديد من العلماء المنصفين حول العالم يبدى إعجابه الشديد بتلك التجربة الفريدة [17].

ولم تَخلُ طرق التحري والاستلغاء [18] والمبادئ المعتمدة في ترتيب المعطيات والتصنيفات الأولية للكلام؛ قوة وتوسّطا وضُعفا، أو كثرةً وجوازاً وقلة وندرة، من سماتٍ إبداعية تؤكدها النتائج المتحصل عليها فيما بعد [19].عِلمًا أن العلماء العرب قد اضطروا لارتجال مُعظم هذه التقنيات، وقد أكد كبار مؤرخي العلوم اللغوية في زماننا أن المقارنة التصفحيّة بين مناهج التحري الميداني المطبقة في الدراسات الهندية ونظائرها العربية تؤكد اختلاف إحداهما عن الأخرى، وهذا يعني أصالة ما أبدعه العرب في هذا المجال [20]، وفي ضوء ذلك لم يبالغ من نصّب أبا عمرو بن العلاء رائدا لتخصص اللسانيات الجغرافية [21] ومؤسسا لهذا الفرع في العلوم اللسانية.

ولا شك أن العلماء المشتغلين على متن اللغة [22]لاحظوا الظواهر الأدائية الخاصة التي أطلقوا عليها اسم"اللغات" وأحياناً أخرى "اللُّغيّات" وكانوا على درايةٍ واضحةٍ بالخصوصيّات الصوتيّة والسياقية التي تحكمها في الاستعمال. لكن المسألة الجدليّة في هذا الموضوع هي الاستنتاجات الجديدة التي أثبتها بعض المستشرقين منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ثم تسربت إلى الدراسات العربية لتصبح في ظرف وجيز مسلمة ثابتة، ويتعلق الأمر بفكرة"اللغة الأدبية المشتركة"التي كانت لسانا موحدا للناطقين العرب ويلزم عنه أن لكل قبيلة لغة أو "لهجة" خاصة بها تختلف اختلافا جوهريا عن سواها من القبائل.

إن عدم تصريح العلماء الأوائل أهل اللغة الثقات ناهيك عن مشافهتهم للعرب فترة طويلة بهذه اللغة المشتركة نظير إصرار المستشرقين عليها يُفترض أن يقوي لدى الباحث النزيه أسبابا مقنعة للشك في الأسس الموضوعية التي نهض عليها هذا الزعم. وحسبنا من ذلك شهادة أبي الفتح ابن جني، وهو من آخر العلماء الذين شافهوا العرب في البوادي وكان شاهدا على انحدار المستوى

العام للفصاحة في أوائل القرن الهجري الرابع، ومع ذلك نجده يقول:«هذا القدر من الخلاف (بين القبائل العربية في بعض أوجه النطق) **لقلته ونزارته** محتقر غير محتفل به ومعيج عليه وإنما **هو شيء في الفروع يسير**، وأما الأصول وما عليه العامة والجمهور فلا خلاف فيه» [23].

4- استثمار قراءات القرآن الكريم المتواترة في إثراء تعليم العربية: يؤكد اختلاف القراءات القرآنية المتواترة في أداء الحرف الواحد والكلمة الواحدة وقفاً ووصلاً أن هذا الاختلاف هو من بيان اللسان العربي، وجزء أساسيّ من تكوينه اللفظي والمعنوي. لكن أغلب هذه الوجوه غير معتد به في برامج تعليم العربية وقد يُبالغ بعض المعلمين أو الباحثين في تفضيل وجه أدائي محدّد، ثم يعمدون إلى إقصاء غيره من الاختيارات الجيّدة الراسخة في الفصاحة أو ينتقصون منها وهذه مُشكلة مزمنة في بناء المناهج التعليمية، ولا سيما في اختيار طرق التمرين على الصيغ الصرفية والتراكيب النحوية [24]، وكذلك في طرق التلقين والتصحيح أثناء حصة التعبير الشفهي.

من ذلك مثلا الوجوه الفصيحة المعتبرة في نُطق الهمْزة [25]، فلقد أجمع العرب على استثقال الهمز [26]، ومن أجل ذلك توسّعوا في تصريفاته على سبعة أوجه فاشية الاستعمال في مصادر المدونة العربية المُعتبَرة: القرآن الكريم كلام العرب الموثوقة عربيّتهم (شعرا ونثرا)، والحديث النبوي الشريف. والأوجه المعنية هي: التحقيق، التخفيف، الإبدال، إلحاق الهمْز بحركة ما قبله الحذف الإثبات، وتسهيلُ الهمْز بينَ بينَ.

وتعتمد كتب القراءات تصنيفا ثلاثيا لحالات الهمز عند القراء هي: الهمز المفرد الهمزتان من كلمة، والهمزتان من كلمتين. أما الهمز المفرد فهو الذي لم يقترن بهمز مثله، ويرد في مقاطع الكلمة جميعها؛ أولها [27] ووسطها وآخرها.

وللسادة القراء مذاهب أربعة في نطق هذه الهمزة هي: التحقيق والإبدال والحذف والتسهيل.

أما إذا التقت همزتان في كلمة ففيه احتمالان؛ أولهما: أن تكون الأولى متحركة والثانية ساكنة، فعموم القراء يُبْدِلون الثانية حرف مد من جنس حركتها؛ الألف للفتح والواو للضم والياء للكسر. والاحتمال الثاني: أن ترد الأولى مفتوحة والثانية متحركة، فللسادة القراء اختيارات أدائية ضافية في معاملتها يوضّحها الجدول الآتي [28]:

القارئ	وجه الأداء في الهمزة الثانية من الكلمة [29]		
	مفتوحة (أَ أَنت)	مضمومة (أَ أُلقي)	مكسورة (أَ ئِنا)
ابن كثير	التسهيل دون إدخال [30]	التسهيل دون إدخال	التسهيل دون إدخال
قالون	التسهيل مع الإدخال	التسهيل مع الإدخال	التسهيل مع الإدخال
أبو عمرو	التسهيل مع الإدخال	التسهيل مع الإدخال	التسهيل مع الإدخال وعدمه
هشام	التسهيل والتحقيق مع الإدخال	التحقيق مع الإدخال وعدمه	التحقيق مع الإدخال وعدمه
ورش	التسهيل، الإبدال ألفا [31]	التسهيل دون إدخال	التسهيل دون إدخال
سائر القراء	التحقيق دون إدخال	التحقيق دون إدخال	التحقيق دون إدخال

أما إذا اجتمعت همزتان في كلمتين، وكانتا همزتيْ قطع متجاورتين، فإما أن تتفقا في الحركة أو تختلفا. أما الحالة الأولى (اتفاق الهمزتين في الحركة) فقد تنوعت فيها اختيارات السادة القراء تحقيقا وتخفيفا وتسهيلا على النحو المفصّل في الجدول الآتي:

القارئ	الهمزتان من كلمتين		
	مفتوحتان (جاء أَحدهم)	مضمومتان (أَولياءُ أُلئك)	مكسورتان (هؤلاءِ إن)
أبو عمرو	حذف الأولى وتحقيق الثانية	حذف الأولى وتحقيق الثانية	حذف الأولى وتحقيق الثانية
قالون والبزّي	حذف الأولى وتحقيق الثانية	تسهيل الأولى بينها وبين الواو	تسهيل الأولى بينها وبين الياء
ورش وقنبل	تحقيق الأولى وتسهيل الثانية أو إبدالها ألفا	تحقيق الأولى وتسهيل الثانية أو إبدالها واوا	تحقيق الأولى وتسهيل الثانية أو إبدالها ياء
بقية القراء	تحقيق الهمزتين	تحقيق الهمزتين	تحقيق الهمزتين

أما الحالة الثانية (اختلاف الهمزتين في الحركة) فورد منها في الكتاب العزيز خمس مواضع محصاة، فيما يلي بيان اختيارات السادة القراء في أدائها:

	الموضع في القرآن الكريم	صفة الهمزتين	وجه القراءة
1	{شُهَداءَ إِذ} [البقرة:133]	الأولى مفتوحة والثانية مكسورة	تحقيق الأولى وتخفيف الثانية
2	{جاءَ أُمة} [المؤمنون:44]	الأولى مفتوحة والثانية مضمومة	تحقيق الأولى وتخفيف الثانية
3	{السفهاءُ أَلا} [البقرة:13]	الأولى مضمومة والثانية مفتوحة	تحقيق الأولى وقلب الثانية واوا
4	{النساءِ أَو} [البقرة:235]	الأولى مكسورة والثانية مفتوحة	تحقيق الأولى وقلب الثانية ياء [32]
5	{يشاءُ إِلى} [البقرة:142]	الأولى مضمومة والثانية مكسورة	تحقيق الأولى وإبدال الثانية واوا [33]، تخفيف الثانية بين بين [34].

والذي نستنتجه من هذا العرض أن **للعربية الفصيحة أكثر من وجه في أداء كلماتِها** كما هو الشأن في كل لغات العالم [35]، وإصرار واضعي المناهج على وجْه واحد هو: المُحقَّق المُدقَّق يعبّر عن وجهة نظرهم **الأحادية الجانب**، ذلك أنّهم يُلْغون جوانب رحْبة وممتازة من سعة العربية وخفتها ومرونتها أيام تنزل القرآن وتدوين قراءاته، وتأثير ذلك على المتعلم شديد الوطأة؛ فأكثر المثقَّفين العرب، فضلا عن طلاب العربية في كل المستويات الدراسية يعتقدون اعتقادا جازما أن للهمزة في أحوالها الكثيرة السابقة صفة نطقية واحدة هي التحقيق التام. ولو علموا أن فيها وُجوها أخرى أخفّ وألين، لتغيرت نظرتهم إلى هذه اللغة، ولا سيما إذا لاحظوا أن هذه الوجوه موجودة في خزينهم اللغوي المتداول في اللهجات المحليّة [36].

5- ملاحظاتُ اللغويين والنحاة الأوائل حول سعة العربية: يثير انتشار مصطلحات كالخفة والاختصار وسعة الكلام والإدراج في مصنفات علماء العربية وتوجيهات السادة القراء ملاحظة أساسية حول مصير هذه الثروة اللغوية المُستَجادة وأسرار اختفائها في النموذج الوصفي والنطقي المعروف حاليا للغة الفصحى.

لقد سجل الجاحظ الفوارق الأساسية في الأداء الفصيح بدلالة مقام صدوره وحاول مبدئيا أن يؤسس لنظرية ترصد هذا التلازم فيما يسميه **مقامات الانقباض والحرمة** بإزاء مقامات الأنس والترخص [37].كما جاء في كتاب سيبويه حول ما كثر وشاع في كلام العرب في زمانه وهو شاذ عن القياس مثل: أَحسْتُ ومَسْتُ وظِلْتُ ويُسطاع وبَلْعنبر وبَلْحارث ولْماء بنو فلان. ثم قال في ذلك كله ونظائره: وهي عربية [38]. والذي حوّل هذه الصيغ من الوجه المقيس إلى هذه الوجوه الجديدة إنما هو عوارض العفوية وسرعة الحديث في التخاطب اليومي، فمن أجل ذلك لا يعد من وجهة النظر اللسانية لحنا أو خطأ لأنه وجه أدائي متواضع عليه، محكوم بخصائصه النطقية وشروطه السياقية.

وذكر الفراء في معاني القرآن أنه سمع الكثير من العرب الموثوق بعربيتهم يقولون: أيشٍ وهم يريدون: أي شيء هذا [39]. فقد سقطت في هذا المثال وأضرابه أجزاء كثيرة من الكلام تجاوبا مع كثرة الاستعمال، وطلبا للخفة والأنس مع المخاطب، ومع ذلك حافظ الكلام على رسوخه في الفصاحة كما تدل عليه عبارة: "الموثوق بعربيتهم" التي سجلها الفراء تأكيدا منه على أن هذا الاختيار إنما هو من جودة العربية ومن بيّنات سعتها واستجابتها لكل مقامات الحديث.

وقد حاول الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح أن ينظم ملاحظات علماء العربية في هذا الشأن ومطابقتها بمقامات البلاغ وأحواله لاستنباط المستويات

الأساسية للغة العربية الواجب مراعاتها حسب ما تقتضيه المرافق الحياتية من خصوصيات [40] نوضحها فيما يلي:

	المستوى اللغوي	صفاته اللغوية الأساسية	مقامه الاتصالي المناسب
1	الأعلى: المحرر المحقق	ألفاظه مختارة، وطريقة نطقه خاضعة للمراقبة.	الاختصاصات العلمية والفنية؛ المسرح الكلاسيكي، الشعر الجزل، الخطب الرسمية...
2	الأوسط: الفصيح المبتذل [41]	يكثر فيه التخفيف من الدرجة الأولى [42]	المناسبات غير الرسمية، يستعمل للمساعدة في الشرح في المقامات التعليمية.
3	الأسفل: السوقي [43]	التخفيف من الدرجة الثانية والثالثة	لغة الحياة اليومية والجوانب الخاصة منها؛ كالأسواق، النوادي، الحياة المنزلية...

6- مجالات استفادة العربية الفُصحى من اللّهجات العربيّة المحكية: يلاحَظ في الدراسات اللغويّة العربيّة العديد من الأفكار الجاهزة حول الوضع الحالي للغة العربية ومنها على سبيل المثال فكرة اختلاف النظام المعاصر عن النظام القديم اختلافات أساسيّة أثرت بعمق على مستوى العطاء الاتّصالي للّغة العربية. إن هذه الأفكار تحتاج إلى مناقشة موضوعية، لأن الوضع الحالي للعربية قد تأثر في أحكام بعض الدارسين بمقارنات آلية لما هو وضع اللغات الحية الأخرى، يلاحَظ هذا بوضوح في الأعمال المتأثرة بالأدبيات الأنجلوسكسونية.

وفي مقابل ذلك أكد المستشرق "دوزي" في مستدركه على المعاجم العربية أن الفصحى هي الأساس لكل اللهجات المتفرعة عنها، وهذا ما توصلت إليه الدراسات اللهجية المقارنة [44]، ومعناه أن حلقة الوصل بين الفصحى ولهجاتها حقيقة

دامغة، والفروق الناشئة تحكمها قواعد في التفريع يمكن تطبيقها عكسيا لاسترداد الأصول النموذجية التي اختفت في الاستعمال.

من جهة أخرى، طرح بعض الباحثين مشكل تعقد الوضع اللساني للغة العربية وأنها لا تتطابق مع الأوضاع المشاهدة في اللغات العالمية الأخرى، وقد صرح "مهدي علوش" في دراسته حول "العربية المستعملة" أن الفروق كبيرة ومؤثرة عند المقارنة بين العربية والإنجليزية، ويستطرد في الكلام عن العربية العامية التي لا تؤدي نفس الأدوار التواصلية الهامة التي تؤديها الإنجليزية العامية [45].

ومن الطبيعي أن يتوصل الباحث إلى مثل هذه النتائج عندما يقارن مكونات غير متطابقة فشتان بين العربية والإنجليزية، ولكل منهما وضعها الاتصالي والثقافي الخاص، ثم إن هناك تداخلا في التحليل بين اللهجات العربية والعربية العامية، ذلك أن الأولى هي وجوه أدائية واسعة الانتشار تفرعت عن الفصحى وأسهمت في صيغتها الحالية معطيات كثيرة بعضها غير لغوي في الأساس. أما الثانية فليس لها وجود تطبيقي، بمعنى أن العامية كوجه مخفف من الفصحى في مقابل العامية كوجه مخفف من الإنجليزية أو الفرنسية ونحوهما من اللغات العالمية مندثر في الاستعمال وهو الجانب الأساسي الذي تفتقر إليه العربية الفصحى في زماننا ويبحث العلماء طرق إحيائه واستعادته.

وقد حفظت علينا اللهجات العربية المحكية ذخيرة ضافية من المادة الفصيحة الجيدة التي لا نعثر لها على أثر في الإنشاءات العربية الأدبية أو العلمية، وقد تساعد هذه المادة في حل العديد من الإشكالات المطروحة لا سيما في تعليم العربية والترجمة منها وإليها، وقضية تطويع التراكيب العربية للبرمجة الحاسوبية.

ومن الصعب أن نفسر مثلا أن صاحب القاموس (الفيروز أبادي) يقول في كلمة أُبّهة:الأبهة كسُكرة: العظمة والبهجة والرواء والكبر والنخوة. ثم نجد تقاليدنا البلاغية ترفض استعمالها في علوي الكلام بحجة أنها عامية؟ وقس على ذلك "أخطى" [46] التي رُوي عن أبي الأسود الدؤلي تسهيلها [47]، ولو قالها أحد

تلامذتنا لخطأه الأستاذ على الفور، ونظائر ذلك بالآلاف في نقطة التقاطع بين العاميات الدارجة وأصولها المعتبرة في الموارد الفصيحة الموثوقة.

يقول الأستاذ عبد المنعم سيد عبد العال في مقدمة معجمه للألفاظ العامية ذات الحقيقة والأصول العربية:«ليست مهمة المعجم الذي بين يديك إعادة تسجيل الألفاظ العربية..بل مهمته التنبيه إلى الكلمات الفصحى التي يتوهم كثير بأنها عامية، رغم وجودها في القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، أو في نصوص الشعر، أو في المعاجم المختلفة.. لقد جمعت ألفاظا ظلت منعزلة عن تحريراتنا الأدبية والصحفية لا يستخدمها الكتاب ولا يجرؤ على تداولها الطلاب، مع أن واقعها العربي وحقيقتها الفصحى واستخدام الناس لها في حديثهم ومعاملاتهم، لا يتفق وهذا الانعزال ولا يسير في خطاه» [48].

ومنذ أن أخرج الأستاذ أحمد تيمور معجمه الكبير في الألفاظ العامية [49] انتبه الدارسون إلى إمكانية إثراء هذا الجانب، وتوالت الجهود لرصد الذخيرة الفصيحة المكتنزة في ثنايا اللهجات العامية العربية، وقد بينت الأعمال الكثيرة المقترحة في هذا الشأن خلال الأربعين سنة الأخيرة أن الأمة العربية فقدت الكثير بإغفالها لهذه الثروة اللغوية وعدم استغلالها في الإبداع العلمي والتعليمي والثقافي، وأثبتت هذه التحقيقات من جهة أخرى صحة النظرية القائلة بأن الوضع الاتصالي الضيق للغة العربية الفصحى هو استثناء طارئ على حقيقتها وأن استعادة الجانب الحيوي من هذه اللغة ممكن بالفعل إذا تكاملت الجهود واتضح البرنامج العلمي المخصص لهذه المهمة الكبيرة.

خاتمة: يحاول البحث العلمي من خلال الملاحظة الدقيقة والتحقيقات العميقة واستغلال أوثق الأدوات المنطقية والتقنية أن يسهم في تقدم المجتمعات وتحسين ظروف حياة المواطنين وبالمفهوم القرآني: إعمار الأرض وإصلاحها لنفع الناس وإسعادهم.

والبحث في اللغة لا يختلف قيد أنملة في السعي إلى بلوغ الغايات السابقة، لأن البحث في اللغة هو بحث في الوسيط الذي يوفر التواصل والتفاهم بين الناس فضلا عن دوره الخطير في إنتاج المعرفة والحفاظ على التراث وصيانة الهوية. ومن الواضح أن بقاء الأمة وازدهارها متوقف على عوامل عديدة مترابطة، ومن المنطقي أيضا الاعتراف بأن تحسين أدائنا التواصلي عن طريق لغة عربية حاملة لثقافة المجتمع وتطلعاته وتراثه يمثل واحدا من أرسخ قواعد هذا المسعى.

الهوامش

[1] - الزركشي (بدر الدين محمد بن بهادر:745- 794هـ)، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1- 1957م،ج2/165.

[2] - جلال الدين السيوطي(عبد الرحمن بن الكمال:849- 911هـ)، الإتقان في علوم القرآن.مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ط3- 1951م. ج2/182.

[3] - قال في ذلك:«كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا وصح سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها»محمد بن الجزري (أبو الخير الدمشقي:751- 833هـ)، النشر في القراءات العشر، تح:علي محمد الضباع، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان،دت ج1/9.

[4] - المواضع الأربعة عشر المذكورة حسب ترتيب السور في المصحف الشريف: يوسف2 إبراهيم4 النحل103، مريم97، طه113، الشعراء195، الزمر28، فصلت3- 44 الشورى7 الزخرف3 الدخان58، الأحقاف12، القيامة16.

[5] - أثبتنا من الآيات الكريمة في هده المواضع ما فيه نص صريح على المطلوب. علما أن آيات أخرى تقوي هذا المعنى نفسه بدرجات متفاوتة. كقوله تعالى: فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّدّاً [مريم:97]/ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [الدخان : 58]. ولسانه هو اللسان العربي، أو لغة قريش خاصة.

[6] - وردت هذه الصيغة في ثلاثة مواضع:[الرعد:37/ طه:113/ الحج:16].

[7] - وردت هذه الصيغة في موضعين:[الشورى:52،7]

[8] - وردت هذه الصيغة في موضعين: [مريم:97/ الدخان:58]

[9] - وقع التحدي أولا بعشر سور من مثل القرآن(هود14،13)، ثم بسورة (البقرة23/ يونس38). ثم التحدي العام وإثبات أن هدا العجز قائم ودائم إلى يوم القيامة للإنس والجن معا (الإسراء88)

[10] - اقترن إنزال القرآن الكريم بالحكمة في العديد من المواضع، لا سيما أوائل السور. أنظر مثلا: ([نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ [آل عمران:3]/ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ [يونس: 1]/ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ [لقمان:2]/ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ [يس: 2]).

[11] - الإشارة هنا إلى الآية 21 من سورة الروم.

[12] - أبو القاسم الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، تح: مازن المبارك، ط3،1979م، دار النفائس بيروت، ص65- 66.

[13] - المقصود أن قطاعا كبيرا من العلماء والفلاسفة الغربيين يذهبون هذا المذهب، وذلك لتقوقعهم المزمن داخل شرنقة نظرية التطور من جهة والمذهب الوضعي من جهة أخرى، ومن الصعوبة بمكان إقناعهم بغير ذلك.

[14] - كان هذا الموقف المتشدد في إطار النظرة الوصفية الوظيفية دأب جمهور لا بأس بع من علماء العربية المحدثين. يقول الأستاذ تمام حسان:«نظرت في كتب اللغة العربية ففطنت إلى أن أساس الشكوى هو تغليب المعيارية في منهج حقه أن يعتمد على الوصف أولا وأخيرا». اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب، القاهرة، ط4، 2000م، ص12. وقال في المرجع ذاته:«جرت عادة الباحثين اللغويين في الماضي أن ينظروا إلى اللغة من زاوية المتكلم...أن يفكروا في دراستها تفكيرا معياريا». ص26.

[15] - هذه نظرة التطوريين للتعليل وهي نفس نظرة الوضعيين أتباع إمانويل كانت والعقلانيين أتباع ديكارت. والنظرة التطورية تهيمن على البحث العلمي في العالم حاليا بشكل لم يسبق له مثيل. واللافت للنظر أن كثيرا من علماء اللسانيات العالمية كنعوم تشومسكي وجاكندوف وستيفن بينكر وغيرهم هم جميعا من المؤمنين الراسخين بهذه الأفكار، والجدير بالذكر أن نزعتهم هذه كثيرا ما تتسرب إلى ثقافتنا العربية من خلال كتبهم المترجمة ولا يكاد أحد يتفطن إلى أساسها التطوري العميق.

[16] - للتفصيل أنظر: عبد الرحمن الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، موفم للنشر، 2012م ص14- 22.

[17] - و ما يؤسف له حقا أنه إلى جانب الإجحاف والطمس الذي مارسه بعض المستشرقين حول هذه الجهود، فإن الباحثين العرب لم يبذلوا الجهود الكافية لكشف الحقائق وإظهارها للعالم، ولا سيما أن أكثر ما كُتب حول هذا الموضوع فهو باللغة العربية، بمعنى أننا نكلم أنفسنا.

[18] - الاستلغاء هو واحد من المصطلحات الخاصة باللغويين الذين تخصصوا في جمع المادة ومشافهة العرب. ويعني عندهم مجموعة من الطرق (الاستراتيجيات) التي تجبر المخبر (الشخص الذي تؤخذ عنه اللغة) أن ينطلق بكلمات أو جمل محددة يحتاج المورِد (جامع اللغة) أن يسجل طريقة نطقه فيها على سبيل العفوية والسليقة.

[19] - يمكن الحصول على معطيات مفصلة حول هذه المعطيات في الدراسة الحافلة للأستاذ ناصر الدين الأسد بعنوان: الشعر الجاهلي أصوله ومصادره.و للتفصيل حول النطاق الجغرافي الحقيقي لحملات التحري وأسماء القبائل ونسب التسجيل وغير ذلك من المعطيات الدقيقة يراجع الدراسة الهامة للأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح: السماع اللغوي العربي العلمي ومفهوم الفصاحة. وللمقارنة حول مقولات معارضة يراجع موسوعة اللغة واللسانيات العربية للمستشرق الهولندي كيس فرستيخ.

[20] - عبد الرحمن الحاج صالح، منطق العرب في علوم اللسان، ص7. وكتابه الآخر: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، ص11- 21.

[21] - صرح بهذه النسبة عدد من اللسانيين العرب المعاصرين، وقد جادل الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح حول هذه الأسبقية في العديد من المواضع لا سيما في بحثه الموسوم: السماع اللغوي العلمي ومفهوم الفصاحة. ودافع الأستاذ مازن الوعر عن الفكرة ذاتها في مقاله المعنون: علم اللغة الجغرافي عند اللغويين والرحالة المسلمين.

[22] - هم المتفرغون لجمع المادة المعجمية، وهذا اصطلاح قديم يفرق في علم العربية بين قسمين أساسين؛ علم اللغة من جهة، وعلم النحو من جهة أخرى. أنظر في هذا الصدد: ابن يعيش (أبو البقاء موفق الدين. 553- 643هـ/1159- 1245م) ، شرح المفصل 2/1. ويقول أبو نصر الفارابي في عبارة أكثر تفصيلا: « وعلم اللسان عند كل أمة ينقسم سبعة أجزاء عظمى: علم الألفاظ المفردة، وعلم الألفاظ المركبة، وعلم قوانين الألفاظ عندما تكون مفردة وقوانين الألفاظ عندما تركب، وقوانين تصحيح الكتابة، وقوانين تصحيح القراءة، وقوانين تصحيح الأشعار» (إحصاء العلوم، 3- 8).

[23] - أبو الفتح بن جني، الخصائص، ج244/1.

[24] - كانت المناهج القديمة (خلال السبعينات والثمانينات) تخصص حصة كاملة مستقلة لتمارين التصريف والنحويل. وقد تم التخلي عن هدا الإجراء بالكامل في مقاربات التدريس الحالية.

[25] - الهمزة حرف شديد مجهور عند جمهور العلماء الأوائل، قال الخليل بن أحمد في مقدمة معجم العين:«أما الهمزة فمخرجها من أقصى الحلق مهتوتة مضغوطة»، وقال سيبويه:«لحروف العربية ستة عشر مخرجا،فللحلق منها ثلاثة، فأقصاها مخرجاً: الهمزة والهاء والألف»، الكتاب،433/4. أما الأصواتيون العرب المحدثون فلا يرونها كذلك، لثبات صفتها الدقيقة عن طريق التجارب المخبرية لكنهم مع ذلك مختلفون في التعبير الاصطلاحي عن هذه النتائج، أو في تحديد مخرجها تحديدا دقيقا كونها أول الحروف صدورا. للتفصيل أنظر: أكرم علي حمدان، الهمز بين القراء والنحاة. مجلة البحوث والدراسات القرآنية، ع8،س4،ص169- 206.

[26] - سيبوية، الكتاب (548/3)، وابن جني، سر الصناعة (71/1).

[27] - الهمزة في أول الكلمة نوعان؛ همزة قطع تثبت وصلا ووقفا، وهمزة وصل تحقق عند الابتداء وتسقط في درج الكلام.

[28] - للتفصيل أنظر: أكرم علي حمدان، الهمز بين القراء والنحاة. مجلة البحوث والدراسات القرآنية، ع8،س4،ص175- 177.

[29] - التركيز على الهمزة الثانية لأن الهمزة الأولى تثبت على صفة الفتح.

[30] - إدخال حرف مد بين الهمزتين، وتسمى ألف الفصل. أنظر: أحمد خالد شكري، قراءة الإمام نافع من روايتي قالون وورش من طريق الشاطبية. دار الخلدونية للنشر، الجزائر ص42.

[31] - يبدل ورش الهمزة الثانية في المفتوحتين ألفا، وهو المقدم له أداء. أنظر:الجكني (محمد الأمين بن أيدا)، إتمام الفارق بقراءة نافع، ص28.

[32] - تتعين الوجوه الأربعة المذكورة لكل من: نافع وابن كثير وجعفر وأبي عمرو ورويس، أما بقية القراء ورواتهم فبتحقيق الهمزتين.

[33] - هذا الوجه للقراء المذكورين آنفا،

[34] - اختار هذا المذهب جمهور من كبار النحاة وعلماء العربية، وهو مذهب الخليل وسيبويه. أنظر: الكتاب (542/3). والمذهبان صحيحان، غير أن الأول أقوى في النقل، والثاني أرجح في القياس. أنظر: النطق بالقرآن (225/1- 226).

[35] -أكثر لغات العالم تشتمل على مثل هذه التنوعات الأدائية في الحروف الصوتية (الفونولوجية) والكلم المفردة، ولا سيما اللغات الحية التي تحظى بانتشار واسع. وبعض اللغات كالإنجليزية مثلا قد تمكن أصحابها من تطوير مقابلات خطية قياسية لكل واحد من الأداءات فاسهم ذلك أكبر إسهام في تطوير تعليمها سواء للناطقين الأصليين أو غيرهم.

[36] - من أهم الأسس في تعليم اللغات اعتماد المادة التي تكون أكثر قربا من لغة المتعلم الأصلية ليحدث عن انسه بها وإدراكه لمعناها تحفيز كبير على مواصلة التعلم. ويمكن تطبيق نفس المبدأ على تعليم العربية لا سيما في المناطق التي تكون لغة التلاميذ الأصلية لهجة بعيدة عن الفصحى أو لغة أخرى غير العربية.

[37] - أنظر: الجاحظ، البيان والتبين (114/3).

[38] - سيبويه، الكتاب (428/2).

[39] - الفراء، معاني القرآن (52/2).

[40] - عبد الرحمن الحاج صالح، الأسس العلمية واللغوية لبناء مناهج اللغة العربية في التعليم ما قبل الجامعي. ضمن سلسلة بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1 ص178.

[41] - المبتذل هنا بمعنى: الدارج، كثير الاستعمال.

[42] - التخفيف من الدرجة الأولى هو الوجوه المعتبرة الجيدة التي وصفها النحاة وثبتت في قراءات الذكر الحكيم، ومن الدرجة الثانية اللغة الخاصة المستغلقة (المشفرة) كاصطلاحات المخبرين والجواسيس، ولغة الشباب في أيامنا. ويدخل في الدرجة الثالثة التحريف عن الأصل لإحداث وهم مقصود، وهذا كثير جدا في التعبير العامي، ومقامه المزاح والهزل عن طريق لعبة الكلمات.

[43] - نسبة إلى السوق، وهو من اصطلاحات اللغويين الأوائل. ويدل استخدامه عندهم على شعورهم العميق بأن لغة السوق والمنزل لم تكن كلغة المسجد والديوان وبيت القضاء وقس على ذلك.

[44] - راجع في هذا الصدد بحث الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله، نحو تفصيح العامية في الوطن العربي. مجلة اللسان العربي، الرباط، ع1 (1384هـ/1964م)ص13 وما بعدها.

[45] - Mahdi Alosh, Using Arabic: Introduction to Arabic Natural Language Processing, Cambridge University Press,1st Pub,2005,p2.

[46] - وجه نطق معتبر في: أخطأ. وهو كثير جدا في عامياتنا. ونظائره: أرجا، أبدا. ونحوهما.

[47] - أنظر:أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني (4485).

[48] - عبد المنعم سيد عبد العال، معجم الألفاظ العامية ذات الحقيقة والأصول العربية ص3- 4.

[49] - أحمد تيمور، معجم تيمور الكبير في الألفاظ العامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1978م.